اسبغ عليها حساسية خاصة . ووجد القسام في جمعية الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس ، فكان رئيسها وحامل لوائها . ويقول رشيد الحاج ابراهيم « لعل القسام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق اليه ، وهو أن ينشىء عصبة بعد عصبة من اهل الايمان بهدف الثورة يوما ما » واذا بالقسام بعد عدة سنوات يكون عصبة سرية شرطاها الاساسيان أن يقتني العضو السلاح على حسابه الخاص وان يتبرع بما يستطيعه لهذه العصبة ، وكان بعض افراد هذه العصبة من جمعية الشبان المسلمين وبعضهم الاخر من خارج هذه الجمعية(٢).

وكان الشيخ القسام ذا شخصية جذابة ، حسن السيرة والمعاشرة ، محدثا لبقا وخطيبا بارعا ، وابتدأ يخرج الى القرى منذ عام ١٩٢٩ عندما عين مأذونا شرعيا من قبل المحكمة الشرعية فكان بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الاعراس ، مما أعطاه فرصة لدراسة نفسيات الجماهير ، وكان القسام يتصل بسائر طبقات الشعب لا فرق بين متدين وغيره ، اعتقادا منه أن اصلاح المستهترين اولى من اصلاح غيرهم ، وكان هذا الاسلوب محل انتقاد موجه اليه من بعض الشخصيات ، حتى انه جرت بينه وبين بعض المثقفين مناظرات في هذا الصدد ، مثل تلك التي حدثت مع الشيخ صالح الحوراني ، فكان يفحم خصومه ، وقد ذكر الكثيرون من اخوان الشيخ القسام انه كان يراقب المصلين وهو يخطب فوق منبر المسجد ، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد الى زيارته في منزله ، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لانقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار ، ضمن مجموعات سرية صغيرة لا يزيد عدد أفراد كل منها عن خمسة أفراد . وكان القسام يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان ، فكان لا يبوح بالسر الكبير الذي يحمله وهو الدعوة الى الثورة لمنع اقامة وطن قومي يهودي في ارض فلسطين الا لاشخاص قلائل بعد أن يدرس نفسيتهم دراسة كافية لمدة قد تطول عدة سنوات . واستمر القسام يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين ، يهيئهم للانطلاق في الوقت المناسب نحو الثورة(٣).

وكان القسام يحس بخطر الاستعمار والصهيونية ، فكان يدعو الى اتحاد الكلمة ولم الشعث وكان يبث روح الوطنية في النفوس ، داعيا الى الوحدة مناديا بالعودة الى تعاليم السلف الصالح ، منددا بالفرقة منذرا قومه بعواقب الشقاق والتمزق(٤). واتفق مع بعض الخلص من أصدقائه على حمل راية الثورة ، وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن ، ليعطوا لابناء أمتهم درسا بليغا في التضحية(٥). وكان القسام ينتقي أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية ، كما كانوا يقومون بحركات استطلاعية يتمرنون في أثنائها على اصابة الهدف(٦). ويروي صبحي ياسين ان القسام كان يقسم اخوانه الى عدة وحدات عسكرية منظمة : وحدة خاصة بشراء السلاح ووحدة للتدريب العسكري ووحدة للتجسس على البريطانيين والصهيونيين ووحدة للدعاية للثورة في المساجد والمجتمعات ووحدة للاتصالات السياسية ، وهذا كله برغم امكانياته المحدودة ورغم مراقبة السلطة لسائر تحركاته(٧).

وكان القسام يهتم بنشر مبادئه الحرة بين العمال والفلاحين والباعة الذين كانوا يحضرون دروسه(٨). كما كان متصلا بأوساط العمال في حيفا ، وكانت روحه وعظاته منسجمة مع فكرة الجهاد ووجوبه ، وكان بارعا في الوعظ نافذا به الى أعماق النفوس ، وتكونت حوله حلقة جهادية متدينة من هذه الطبقة(٩). وكان القسام يلوم العلماء على تهاونهم في الدعوة الى الجهاد وحملهم مسئولية الوضع الجائر الذي كانت تنوء فلسطين تحت أثقاله ، وكان يردد على شفتيه في كل مناسبة آيات من كتاب الله تتعلق بالجهاد والاستشهاد(١٠). ولم يكن الشيخ القسام بالمتسرع او المندفع ، فقد جاوز الستين من عمره ، كما انه زوج وأب لبضع بنات وأطفال صغار ، وهو فوق ذلك عالم مفضال